﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ
كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ
لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ
سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا
وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ
وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

ووقف المستشرقون عند قول الحق سبحانه : ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ وكعادتهم - كمشككين فى الإسلام - نجدهم يبذلون جهداً كبيراً فى محاولة التصيد لأخطاء يتوهمونها فى القرآن الكريم فيقولون : إن مهابة القرآن وقدسيته عندكم أيها المسلمون لا تُمكِّن أذهانكم من الجراءة اللازمة للبحث فى أساليبه ؛ لتكتشفوا ما فيه من الخلل . ولكن إن نظرتم إلى القرآن ككتاب عادى لا قداسة له فسوف تجدون فيه التضارب والاختلاف .

وخصص المستشرقون باباً كبيراً للبحث فى مجال النحو بالقرآن الكريم ، وجاءوا إلى مسألة الشرط والجزاء ، ومن يقرأ نقدهم يتعرف فوراً على حقيقة واضحة هى جهلهم بعمق أسرار اللغة العربية ، فهم قد أخذوا ظاهر اللغة العربية ، ولا يملكون فيها مَلَكة أو حُسْن فهم ، وقالوا: إن أساليب الشرط فى اللغة العربية تقتضى وجود جواب لكل شرط ، فإن قلت: إن جاءك زيد فأكرمه ، تجد الإكرام يأتى بعد مجىء زيد ، وإن قلت: إن تذاكر تنجح ، فالنجاح يأتى بعد المذاكرة . إذن: فزمن الجواب متأخر عن زمن الشرط .

وهم قدموا كل تلك المقدمات ليشككونا فى القرآن . ونقول لهم : إن كلامكم عن الشرط وجوابه صحيح ، ولكن افهموا الزائد ، فحين نحقق فى الأمر نجد أن الجواب سبب فى الشرط ؛ لأنك حين تقول: إن تذاكر تنجح ، فالطالب إن لم يستحضر امتيازات النجاح فلن يذاكر ، بل لابد أن يتصور الطالب فى ذهنه امتيازات النجاح ليندفع إلى المذاكرة ، إذن : فالجواب سبب دافع فى الشرط ، ولكن الشرط سبب فى الجواب ولكنه سبب واقع ، فتصُّور النجاح أولاً هو سبيل لبذل الجهد فى تحقيق النجاح ، وهكذا تكون الجهة منفكة ؛ لأن هذا سبب دافع ، وهذا سبب واقع .

وقوله تعالى: ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ ﴾ فعل مضارع ، زمنه هو الزمن الحالى ، ولكن الحق يتبع المضارع بفعل ماض هو : ﴿ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ فهل يكون الشرط حاضراً ومستقبلاً ، والجواب ماضياً ؟ ونقول: إن المعنى : إلا تنصروه فسينصره الله . بدليل أنه قد نصره قبل ذلك . وهذا ليس جواب شرط ، وإنما دليل الجواب ، فحين يكون دليل الجواب ماضياً ، فهو أدل على الوثوق من حدوث الجواب ، فحين دعاهم الله لينفروا فتثاقلوا ، أوضح لهم سبحانه : أتظنون أن جهادكم هو الذى سينصر محمداً وينصر دعوته ؟ لا ؛ لأنه سبحانه قادر على نصره ، والدليل على ذلك أن الله قد نصره من قبل فى مواطن كثيرة ، وأهم موطن هو النصر فى الهجرة ، وقد نصره برجل واحد هو أبو بكر على قريش وكل كفار مكة ، وكذلك نصره فى بدر بجنود لم تروها ، إذن : فسابقة النصر من الله لرسوله سابقة ماضية ، وعلى ذلك فليست هى الجواب ، بل هى دليل الجواب .

ونرى فى قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ أن نصر الله له ثلاثة أزمنة ، فـ ﴿ إِذْ ﴾ تكررت ثلاث مرات ، فسبحانه يقول:

﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ أى: أننا أمام ثلاثة أزمنة : زمن الإخراج ، وزمن الغار ، والزمن الذى قال فيه رسول الله ﷺ لأبى بكر : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ ، وقد جاء النصر فى هذه الأزمنة الثلاثة ؛ ساعة الإخراج من مكة ، وساعة دخل سيدنا رسول الله ﷺ مع أبى بكر إلى الغار ، وساعة حديثه مع أبى بكر .

ولسائل أن يسأل : هل أخرج الكفار رسول الله من مكة ، أم أن الله هو الذى أخرجه ؟ ونقول: إن عناد قومه وتآمرهم عليه وتعنُّتهم أمام دعوته ، كل ذلك اضطره إلى الخروج ، ولكن الحق أراد بهذا الخروج هدفاً آخر غير الذى أراده الكفار ، فهم أرادوا قتله ، وحين خرج ظنوا أن دعوته سوف تختنق بالعزل عن الناس ، فأخرجه الله لتنساح الدعوة ، وأوضح لهم سبحانه : أنتم تريدون إخراج محمد بتعنتكم معه ، وأنا لن أمكنكم من أن تخرجوه مخذولاً ، وسأخرجه أنا مدعوماً بالأنصار . وقالوا: إن الهجرة توأم البعثة . أى : أن البعثة المحمدية جاءت ومعها الهجرة ، بدليل أن رسول الله ﷺ حينما أخذته أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها إلى ورقة بن نوفل ، بعد ما حدث له فى غار حراء ، قال له ورقة : ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك . قال ورقة بن نوفل ذلك لرسول الله قبل أن يتثبت من النبوة ، فقال رسول الله ﷺ : أَمُخْرِجِيَّ هم ؟ قال ورقة بن نوفل: نعم ، لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عُودِى [1]

إذن : فالهجرة كانت مقررة مع تكليف رسول الله ﷺ بالرسالة ، لماذا ؟ لأنه ﷺ كان أول من أعلن على مسامع سادة قريش رسالة الحق والتوحيد.

(١) متفق عليه من حديث عائشة، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣، ومواضع أخرى)، ومسلم فى صحيحه (١٦٠) .

ففكرة الهجرة مسبقة مع البعثة ؛ ولأن البعثة هي الصيحة التى دوَّت فى آذان سادة قريش وهم سادة الجزيرة . ولو صاحها فى آذان قوم ليسوا من سادة العرب لقالوا: استضعف قوماً فصاح فيهم ، ولكن صيحة البلاغ جاءت فى آذان سادة الجزيرة العربية كلها ، فانطلقوا فى تعذيب المسلمين ليقضوا على هذه الدعوة . وشاء الله سبحانه وتعالى ألا ينصره بقريش فى مكة ؛ لأن قريشاً ألفَتْ السيادة على العرب ، فإذا جاء رسول لهداية الناس عامة إلى الإسلام ، لقال من أرسلَ فيهم : لقد تعصبتْ له قريش لتسود الدنيا كما سادت الجزيرة العربية . فأراد الحق سبحانه أن يوضح لنا: لا. لقد كانت الصيحة الأولى فى آذان سادة العرب ، ولا بد أن يكون نصر الإسلام والانسياح الدينى لا من هذه البلدة بل من بلد آخر ؛ حتى لا يقال : إن العصبية لمحمد هى التى خلقت الإيمان برسالة محمد ﷺ . ولكن الإيمان برسالة محمد هو الذى خلق العصبية لمحمد ﷺ .

ويلاحظ فى أمر الهجرة أن فعلها « هاجر » . وهذا يدلنا على أن رسول الله ﷺ لم يهجر مكة ، وإنما هاجر ، والمهاجرة مفاعلة من جانبين ، فكأن قومه أعنتوه فخرج ، والإخراج نفسه فيه نصر ؛ لأن رسول الله ﷺ خرج وحده من بيته ؛ الذى أحاط به شباب أقوياء من كل قبائل العرب ليضربوه ضربة رجل واحد ، وينثر عليهم التراب فتغشى أبصارهم ، وكان أبو بكر رضى الله عنه ينتظره فى الخارج [1] ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يثبت لهم أنهم لن ينالوا من محمد ؛ لا بتآمر خفى ، ولا بتساند علنى . وهذا نصر من الله.

(١) ليس المعنى هنا أن أبا بكر رضى الله عنه كان ينتظر رسول الله ﷺ خارج البيت أو فى مكان قريب منه ، ولكن المقصود أنه ﷺ خرج وحده من بيته ليلاً واخترق صفوف أربعين فتى قوياً قد شهروا سيوفهم لقتله إن هو خرج من بيته وكان وحده ، فالثابت فى السيرة أن أبا بكر كان فى بيته مع أهل بيته وقت الظهيرة وجاءه رسول الله ﷺ متخفياً وقال له : « إنى قد أذن لى فى الخروج » فقال أبو بكر : الصحبة بأبى أنت يا رسول الله . فقال ﷺ : نعم . وتواعدا ثم خرجا من خوخة فى ظهر بيت أبى بكر . أخرجه البخارى (٣٩٠٥) وأحمد (٦/ ١٩٨ ، ٢١٢) وأبو نعيم فى دلائل النبوة (ص ٢٧٠) وسيرة ابن هشام (٢/ ٩٧) .

ويتابع الحق سبحانه : ﴿ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾ ، ويتأكد فى الغار نصر آخر . ذلك أن قصاص الأثر الذى استعانت به قريش واسمه كرز بن علقمة من خزاعة قد تتبع الأثر حتى جاء عند الغار ، وقال: هذه قدم محمد وهو أشبه بالموجود فى الكعبة ، أى أشبه بأثر قدم إبراهيم عليه السلام ، ثم قال: هذه قدم أبى بكر أو قدم ابنه وما تجاوزا هذا المكان . وكان قصاص الأثر يتعرف على شكل القدم وأثره على الأرض . وأضاف: إنهما ما تجاوزا هذا المكان ، إلا أن يكونا قد صعدا إلى السماء أو دخلا فى جوف الأرض . وبالرغم من هذا التأكيد فإنهم لم يدخلوا الغار ، ولم يفكر أحدهم أن يقلب الحجر أو يفتش عن محمد وصاحبه ، مع أن هذا أول ما كان يجب أن يتبادر إلى الذهن ، فمادامت آثار الأقدام قد انتهت عند مدخل الغار كان يجب أن يفتشوا داخله . لكن أحداً لم يلتفت إلى ذلك.

وجاء واحد منهم وأخذ يبول ، فجاء بعورته قبالة الغار ، وهذا هو السبب فى قول أبى بكر لرسول الله ﷺ: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لرآنا.

فقال رسول الله ﷺ بفطنة النبوة: لو رأونا ما استقبلونا بعوراتهم [1] وهذا دليل على أن العربى كان يأنف أن تظهر عورته ، أو هى كرامة لمحمد ﷺ ألا يُريه عورة غيره ، وليأخذها القارىء كما يأخذها ، وهى على كل حال فيض إلهامى لرسول الله ﷺ ، كذلك جعل الحق سبحانه العنكبوت ينسج خيوطه على مدخل الغار ، وجعل الحمام يبنى عُشّاً فيه بيض ،

(١) قد جاء هذا فى أحاديث فيها مقال ، فعند الطبرانى من حديث أسماء بنت أبى بكر « فقال أبو بكر - لرجل مواجه الغار - : يا رسول الله إنه ليرانا . فقال : كلا إن ملائكة تسترنا بأجنحتها فجلس ذلك الرجل فبال مواجه الغار فقال رسول الله ﷺ : لو كان يرانا ما فعل هذا » فيه يعقوب بن حميد وثقه ابن حبان وغيره وضعفه أبو حاتم وغيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح . قاله الهيثمى فى المجمع (٦/ ٥٤) وعند أبى يعلى الموصلى فى مسنده من حديث أبى بكر الصديق قال ﷺ : « لو رآنا لم يستقبلنا بعورته » وفيه موسى بن مطير وهو متروك . وانظر فتح البارى (٧/ ١١)

وجعل سراقة بن مالك يقول : لا يمكن أن يكون محمد وصاحبه دخلا الغار ، وإلا لكانا قد حطَّما عُشَّ الحمام ، وهتكا نسيج العنكبوت .

ونحن نعلم أن أوهى البيوت هو بيت العنكبوت ، فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤١]

ويظهر الإعجاز الإلهى هنا فى : أن الله سبحانه قد صد مجموعة كبيرة من المقاتلين الأقوياء بأوهى البيوت ، وهو بيت العنكبوت ، وقدرة الله تجلَّتْ فى أن يجعل خيط العنكبوت أقوى من الفولاذ، وكذلك شاء الحق أن يبيض الحمام وهو أودع الطيور ، وإنْ أهيجَ هاج . وهذا نصر ، ثم هناك نصر ثالث نفسى وذاتى ، فحين قال أبو بكر رضى الله عنه لرسول الله ﷺ : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، نجد رسول الله ﷺ يرد فى ثقة بربه : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » [1] .

هذا الرد لا ينسجم مع سؤال أبى بكر ؛ لأن أبا بكر كان يخشى أنهم لو نظروا تحت أقدامهم لرأوا مَنْ فى الغار ، وكان الرد الطبيعى أن يقال: «لن يرونا» ، ولكن رسول الله ﷺ أراد أن يلفتنا لفتة إيمانية إلى اللازم الأعلى ، فقال: « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ، لأنه ما دام رسول الله ﷺ وأبو بكر فى معية الله ، والله لا تدركه الأبصار ؛ فمن فى معيته لا تدركه الأبصار .

وتكون كلمة رسول الله ﷺ الذى تعوَّد أبو بكر منه الصدق فى كل ما يقول ، تكون هى الحجة على صدق ما قال ، فعندما قال رسول الله ﷺ : إنه أسْرِى به إلى بيت المقدس وعُرِج به إلى السماء ، قال أبو بكر :

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٦٣) ومسلم فى صحيحه (٢٣٨١) .

إن كان قد قال فقد صدق[1]. فحين يقول رسول الله ﷺ لأبي بكر فيما يحكيه سبحانه: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ ، فلابد أن يذهب الحزن عن أبي بكر ، وقد خشي سيدنا أبو بكر حين دخل الغار ووجد ثقوباً ، خشي أن يكون فيها حيات ، أو ثعابين، فأخذ يمزق ثوبه ويسد به تلك الثقوب ؛ حتى لم يَبْقَ من الثوب إلا ما يستر العورة ، فسدَّ الثقوب الباقية بيده وكعبه[2].

إذن: فأبو بكر يريد أن يفدي رسول الله ﷺ بنفسه ؛ لأنه إن حدث شيء لأبي بكر فهو صحابي ، أما إن حدث مكروه لرسول الله ﷺ فالدعوة كلها تُهدم . إذن : فأبو بكر لم يحزن عن ضعف إيمان ، ولكنه حزن خوفاً على رسول الله ﷺ أن يُصَابَ بمكروه .

ويأتي الحق سبحانه وتعالى فيقول: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ اختلف العلماء[3] في قوله تعالى ﴿عَلَيْهِ﴾ ، هل المقصود بها رسول الله ﷺ ؟ أو أن المقصود بها أبو بكر ؟ وما دامت السكينة قد نزلت ؛ فلا بد أنها نزلت على قلب أصابه الحزن . ولكن العلماء يقولون : إن الضمائر في الآيات تعود على رسول الله ﷺ ، فالحق قال: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ ﴾ أي محمداً عليه الصلاة والسلام ، وسبحانه يقول: ﴿ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ أي محمداً ﷺ ، ويقول أيضاً: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ﴾ أي محمداً ﷺ ، فكل الضمائر في الآية عائدة على رسول الله ﷺ .

(١) سبق هذا الحديث قريباً وقد خرجناه هناك . ومن حديث أبي الدرداء قال النبي ﷺ عن أبي بكر « هل أنتم تاركو لي صاحبي ؟ (مرتين) إني قلت : يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ، فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت» . أخرجه البخاري (٣٦٦١ ، ٤٦٤٠) وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٧٦) .

(٢) قال أبو بكر لرسول الله ﷺ : « والذي بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله ، فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك ، فدخل فلم ير شيئاً فحمله فأدخله ، وكان في الغار خرق فيه حيات وأفاعي فخشي أبو بكر أن يخرج منه شيء يؤذي رسول الله ﷺ فألقمه قدمه فجعل يضربنه ويلسعنه الحيات والأفاعي» سبق إيراد جزء منه من حديث ضبة بن محصن ص ٥١١٩

(٣) انظر : تفسير القرطبي (٤/ ٣٠٧٤) وابن كثير (٢/ ٣٥٨) ، وقد رجح القاضي أبو بكر بن العربي أن سكينة الله إنما نزلت على أبي بكر .

ثم يأتي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾ إذن: فلابد أن يعود الضمير هنا أيضاً على رسول الله ﷺ ، وأقول: ولكن لماذا لا نلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ وهذا قول رسول الله ؛ ولابد أن قوله هذا يجعل السكينة تنزل على قلب أبي بكر . إذن : فالضمير هنا عائد على أبي بكر .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ وقد رأى الكفار عُشَّ الحمام وبيت العنكبوت ، وهذا ما منعهم من أن يروا الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولكن ليس هذا هو المقصود - فقط - بالآية ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ والعنكبوت والحمام مرئيان ، وأول الجنود غير المرئية هو أنه لم يخطر على بال القوم ولا فكرهم أن ينظروا في الغار ، مع أن آثار الأقدام انتهت إليه . لكن الله طمس على قلوبهم وصرفهم عن هذه الفكرة بالذات ، ولم تخطر على بالهم . ثم جاء حدث آخر حين استطاع سراقة بن مالك وهو من الكفار أن يلحق برسول الله ﷺ وأبي بكر ، وهما في طريقهما إلى المدينة ، وكلما حاول الاقتراب منهما ابتلعت الأرض قوائم فرسه في الرمال [1] ، وعلى أية حال ما دام الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ وقال في آية أخرى:

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر : ٣١]

إذن: فالجنود الذين سخرهم الله لرسوله ﷺ ليحفظوه خلال الهجرة لا يعلمهم إلا الله . وكل شيء في هذا الكون من جنود الله ؛ فهو سبحانه

(١) قصة سراقة بن مالك بن جعشم أخرجها مطولة تامة البخاري في صحيحه (٣٩٠٦) معلقاً مجزوماً به من قول ابن شهاب الزهري من حديث سراقة ، وأخرجه أحمد موصولاً في مسنده (٤/ ١٧٦) .

وتعالى الذى سخر الكافر لخدمة الإيمان ، ألم يكن دليل رسول الله ﷺ فى هجرته من مكة إلى المدينة هو عبد الله بن أريقط ، وكان ما زال على الكفر [١] ، فكأن الله سبحانه وتعالى يسخر له الكافر ليكون دليله فى رحلته من مكة إلى المدينة . وهكذا عمل الكافر فى خدمة الإيمان ، وفى الوقت نفسه فكل ما رصدتْه قريش من جُعل [٢] لمن يدلُّها على مكان رسول الله ﷺ لم يُغْرِ الدليل الكافر بالخيانة ، بل أدخل الله على قلب الكافر ما يجعله أميناً على رسول الله ﷺ .

الحق سبحانه يقول : ﴿ **وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ** ﴾ ، ولقد أراد الكفار القضاء على الدعوة بقتل رسول الله ﷺ ، أو نَفْيه بإخراجه إلى مكان بعيد ، أو سجنه [٣] ، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى أن الباطل لا يمكن أن يعلو على الحق ، وأن الحق دائماً هو الأعلى ، ولذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ **وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ** ﴾ ولا يجعل الله كلمة الكفار السفلى إلا إذا كانت فى وقت ما فى عُلُوٍّ . وإن كان عُلوها هو علو الزَّبَدِ على الماء الذى قال عنه الحق سبحانه وتعالى :

﴿ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ** ﴾

[الرعد : ١٧]

---

(١) عن عائشة قالت : « استأجر النبى ﷺ وأبو بكر رجلاً هادياً خريتاً ؟ (أى ماهراً بالهداية) . . . وهو على دين كفار قريش ، فأمّناه ، فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال . . . » الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٢٦٣) . وقد كان ماهراً فعلاً بدروب الطريق إلى المدينة . انظر تفاصيل الطريق الذى سلكه بهما فى سيرة النبى لابن هشام (٢/ ١٠٤ - ١٠٨) .

(٢) الجعل : هو ما رصده كفار قريش مكافأة لمن يدلهم على محمد من مال وغيره .

(٣) ويقول عز وجل فى هذا : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] . ومعنى يثبتوك : يجرحوك جراحة . . لا تقوم معها أو ليحبسوك

ولقد ضرب الله هذا المثل فقال :

﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ﴾ [الرعد : ١٧]

أى : أن كل واد أخذ ما قدره الله له من الماء .

﴿ فاحتمل السيل زبدا رابيا ﴾ [الرعد : ١٧]

وهذا نلاحظه عندما يحدث سيل ، ونجده يأخذ معه القشّ والقاذورات التى لها كثافة قليلة ؛ لتطفو على سطح الماء ، ولكن أتظل عليه ؟ . لا ، بل تُطرد إلى الجوانب بقوة التيار ويبقى الماء نظيفاً . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ [الرعد : ١٧]

إذن : فالحق سبحانه وتعالى يخبرنا أن كلمة الكفار كانت فى عُلُوٍّ كالزَّبد ، ولكن : لماذا أوجد الله علواً ولو مؤقتاً للكفر ؟ أراد الحق ذلك حتى إذا جاء الإسلام وانتصر على الكفر يكون قد انتصر على شىء عال فيجعله أسفل ؛ ولذلك جاء الله سبحانه وتعالى بالمقابل وقال : ﴿ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ﴾ ، فالنسق الأدائى فى القرآن كان لابد أن يتم على أساس ؛ لذلك جاء القول : ﴿ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ﴾ ؛ لأن كلمة الله دائماً وأبداً هى العليا ، وليست كلمة الله عُليا جَعْلاً ، فهى لم تكن فى أى وقت من الأوقات إلا

وهى العليا . ولهذا لم يعطفها بالنصب ؛ لأن كلمة الحق سبحانه وتعالى هى العليا دائماً وأبداً وأزلاً .

وإن كان الكفار قد أرادوا قتل رسول الله ﷺ ، أو أن يخرجوه إلى مكان بعيد لا يستطيع فيه أن يمارس دعوته ، أو يحبسوه ، فإنهم لم يظفروا بشيء من هذا ؛ لأن الله عزيز لا يُغلَبُ ، وعزَّته مبنية على الحكمة .

وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفت المؤمنين إلى أن تثاقلهم عن الجهاد في غزوة تبوك لن يضر الدعوة شيئاً ؛ لأن الله قد نصر رسوله وهو وحده ، ونصره بجنود لم يَرَوْهَا ، فإذا كان النصر لا يحتاج إلا لكلمة الله ، ولا يتم إلا بإرادة الله ، فلماذا إذن التثاقل ؟

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

وهكذا يفتح الحق باب الوصول إليه ؛ ليهبُّوا إلى نصرة الرسول ويزيل الضباب من أذهانهم ، ويفتح لهم باب الوصول إليه لأنهم خلق الله وعياله ، فهو سبحانه يريد منهم أن يكونوا جميعاً مهديين ، وأن يشاركوا فى نُصْرة الدعوة إليه .

والقتال فى سبيل الله قد يكون مشقة فى ظاهر الأمر ، ولكنه يَهَبُ الدعوة انتشاراً واستقراراً . وحين يقوم المسلمون بنصر الدعوة إلى الله ،

ففى هذا القيام مغفرة وتوبة ، وهو رحمة من الله بهم . ورسول الله ﷺ هو القائل :

« الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة »(١)

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى حديث قدسى : « قالت السماء : يا ربى إئذن لى أن أسقط كسَفاً على ابن آدم ؛ لأنه طَعِمَ خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يارب إئذن لى أن أغرِقَ ابن آدم لأنه طَعِم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الأرض مثلهما »

فماذا قال الحق سبحانه وتعالى ؟ قال : « دعونى وعبادى ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إلىّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم »(٢) .

وهكذا نرى رحمة الله بخلقه .

وبعد أن لام الحق سبحانه المسلمين ؛ لأنهم لم يتحمسوا للجهاد ، يفتح أمامهم باب التوبة فقال : ﴿ انفِرُوا ﴾ أى : اخرجوا للقتال ، وهذا أمر من الله يوقظ به سبحانه الإيمان فى قلوب المسلمين ، وفى الوقت نفسه يفتح أمامهم باب التوبة لتباطئهم عن الخروج للقتال فى غزوة تبوك . ولذلك قال : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ والنفرة : هى الخروج إلى شىء بمهيج عليه ، والمثال : هو التباعد بين إنسان وصديق له كان بينهما وُدّ ،

(١) متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٩) ومسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) واللفظ للبخارى. و« سقط على بعيره » أى : صادفه وعثر عليه من غير قصد فظفر به بعد أن ضلّ منه ، والأرض الفلاة هى الصحراء المهلكة .

(٢) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/ ٥٢) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات » .

ثم حدث من هذا الصديق سلوك أو قول يُهيج على الخروج عليه ، فينفر منه الإنسان . والحق سبحانه هنا يأمر : ﴿ انفِروا ﴾ والذى يهيج على النفور هو رفعة دين الله وكلمته ، وحين ترفعون كلمة الله إنما يفتح لكم باب الارتفاع بها فقال : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ . والخفيف : هو الصحيح السليم القوى الذى لا تتعبه ولا ترهقه الحركة . والثقيل : هو المريض أو كبير السن .

والله يريد من الجميع أن يسارعوا إلى القتال ؛ لينجوا من العذاب الأليم ، وينالوا توبته ورضاه .

ولكن الصحيح خفيف الحركة يمكنه أن يقاتل ، فماذا يفعل المريض ؟ يفعل مثلما فعل سيدنا سعيد بن المسيَّب وكان مريضاً ، إذ قالوا له : إن الله أعفاك من الخروج إلى المعركة فى قوله تعالى :

﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [الفتح : ١٧]

فقال : والله أكَثِّرُ سواد المسلمين وأحرس متاعهم (١) .

ومن الممكن أن يكون المريض متميزاً بالذكاء وصحة العقل ، ويمكن أن يُسْتشار فى مسألة ما . وقد يكون المريض أسْوة فى قومه ، فإذا خرج للقتال هاج قومه وخرجوا معه ، ويمكن أن يكون المريض أو الضعيف حافزاً للأقوياء على القتال . فحين يرى الأقوياء المريض وهو يخرج للقتال ؛ فإنهم يخجلون أن يتخلفوا هم .

(١) قال الزهرى : خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه . فقيل له : إنك عليل . فقال : استنفر الله الخفيف والثقيل ، فإن لم يمكنى الحرب كثَّرت السواد وحفظت المتاع . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/٣٠٧٦) وتكثير السواد : تكثير أعدادهم .

واختلف العلماء [1] فى تفسير قوله تعالى : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ فبعضهم قال : إن هذه إشارة إلى ذات الإنسان ، فهناك ذات خفيفة وذات ثقيلة فى الوزن لا تستطيع الحركة بسهولة ، وقال آخرون : إن الفرد الواحد يمكن أن يكون فيه الوضعان ، وقوله تعالى: ﴿انفِرُوا﴾ هو أمر للجماعة ، و ﴿ خِفَافًا ﴾ جمع « خفيف » ، و ﴿ثِقَالاً﴾ جمع « ثقيل »، ومقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة إلى آحاد .

والمعنى: أن ينفر كل واحد من المسلمين سواء كان خفيفاً أم ثقيلاً . وسبق أن ضربنا المثل حينما يدخل الأستاذ على الطلبة ويقول : أخرجوا كتبكم ، ومعنى هذا الأمر أن يُخرج كل تلميذ كتابه ، وإن قلت : اركبوا سياراتكم ، فمعنى ذلك أن يركب كل واحد منكم سيارته .

إذن فالآية تعنى : لينفر كل واحد منكم سواء كان ثقيلاً أم خفيفاً .

ولكن: كيف يكون الإنسان ثقيلاً وخفيفاً فى وقت واحد ؟ نقول : يكون خفيفاً أى : ذا نشاط للجهاد ، وثقيلاً أى : أنه سيدخل فى مشقَّة تجعل المهمة ثقيلة على نفسه . والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦]

والدخول فيما هو مكروه [2] فى سبيل الله أمر يرفع درجات الإيمان . إذن: فالآية تحتمل أكثر من معنى ، فهى تحمل المعنى العام : أن يكون البعض خفيفاً والبعض ثقيلاً فى ذاته ، أو : أن يجمع القتال بين الخفة

(١) اختلف العلماء فى تفسير هذه الآية على عشرة أقوال. ذكرها القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٠٧٥) ثم قال: والصحيح فى معنى الآية أن الناس أُمروا جملة ، أى : انفروا خفّت عليكم الحركة أو ثقلت.

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (١/ ٩٥٢) : « إنما كان الجهاد كرهاً ؛ لأن فيه إخراج المال ومفارقة الوطن والأهل والتعرض بالجسد للشجاج والجراح وقطع الأطراف وذهاب النفس ، فكانت كراهيتهم لذلك، لا أنهم كرهوا فرض الله تعالى » .

في الحركة والثقل في المشقة ، أو : أن يكون الذى يملك دابة هو الخفيف ؛ لأن الدابة تزيل المشقة وأسرع في الطريق ، والثقيل هو من يجاهد ماشياً ؛ لأنه سيتحمل طول المسافة . وساعة يشحن الحق سبحانه وتعالى قلوب المؤمنين ، فهو يطلب منهم ما يكلفهم به بقوة ، ثم تتجلى رحمته فيخفف التكليف . ولو جاء الحكم خفيفاً في أول التشريع ، ثم يُصعَّد ؛ فإن هذا الأمر يكون صعباً على النفس ، ولكن عندما يأتى الحكم ثقيلاً ، ثم يخفف يكون أقرب إلى النفس ، والمثال في قول الحق سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الأنفال: ٦٥]

وهنا يعطى الحق مقياساً لقدرة المؤمن بالنسبة للكافر . فالعشرون يغلبون مائتين ، أى : أن النسبة هى واحد من المؤمنين إلى عشرة من الكافرين ، ولذلك فعندما نزلت هذه الآية كان على المؤمن الواحد أن يقتل عشرة من الكافرين ، لكن الحق سبحانه وتعالى قد علم أن هذا الأمر شديد على نفوس المؤمنين بأن يواجه المؤمن الواحد عشرة من الكفار ، فإنه لا يقدر على ذلك إلا أولو العزم ، فقال سبحانه :

﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ [الأنفال: ٦٦]

وما دام هناك ضعف فلا بد أن يُخفف الأمر بالنسبة للمؤمنين فى مواجهة الكفار أثناء القتال . ونقل الحق سبحانه وتعالى النسبة من : واحد إلى عشرة ، إلى : واحد إلى اثنين ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) ﴾ [الأنفال]

لذلك : مَنْ فَرَّ من قتال اثنين يكون قد فَرَّ من الزحف ، ولكن إن فرّ من مواجهة ثلاثة لا يُحسب فاراً [١] ؛ لأنهم أكثر من النسبة التي قررها الله .

وقول الحق في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ﴿ **انفرُوا خفافًا وثقالاً** ﴾ هو أمر يشمل الجميع على اختلاف أشكالهم ، أي : أنها تحمل أمراً عاماً لكافة المسلمين [٢] . ولكن هناك قول آخر في سورة التوبة ، أعفى بعض حالات معينة من المؤمنين الذين أخلصوا قلوبهم لله ، فيقول سبحانه :

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ﴾ [التوبة]

أي : ليس على هؤلاء الذين جاءت الآيتان الكريمتان [٣] بذكرهم أيُّ حرج في أن يقعدوا عن القتال . وكان هذا هو الاستثناء من القاعدة العامة التي فرضت على كل مؤمن أن يقاتل في سبيل الله ، وهو ما جاءت به الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

---

(١) عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « من فر من اثنين فقد فر ، ومن فر من ثلاثة فلم يفر » . أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١١٥١) مرفوعاً من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد عنه . قال الهيثمي في المجمع (٥/ ٣٢٨) : « رجاله ثقات » . وقد أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢٥٣٨) موقوفاً على ابن عباس من طريق ابن أبي نجيح عن عطاء عنه .

(٢) قال القرطبي (٤/ ٣٠٧٧) : « وذلك إذا تعيّن الجهاد بغلبة العدو على قطر من الأقطار ، أو بحلوله بالعقر ، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافاً وثقالاً ، شباباً وشيوخاً ، كل على قدر طاقته ، من كان له أب بغير إذنه ومن لا أب له ، ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج ، من مقاتل أو مكثّر » .

(٣) قيل : إن آية ﴿ **انفروا خفافًا وثقالاً** ﴾ منسوخة بهاتين الآيتين ، وقيل : الناسخ لها قوله : ﴿ **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾ [التوبة : ١٢٢] . قال القرطبي (٤/ ٣٠٧٦) : « والصحيح أنها ليست بمنسوخة » قلت : فالجهاد أحوال حسب ظروف المعركة ، فمنها ما يتوجب فيها القتال على كل أحد كما بينا ويكون الجهاد حينئذ فرض عين ، ومنها ما لا يتوجب فيها القتال فيكون فرض كفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين وذلك إذا كان العدو خارج الحدود ولم يغز البلاد ويحتلها .

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ والمال هو الذى يجعلك تُعدُّ السلاح للحرب ، وحين يذهب الجيش إلى القتال لا بد أن يكون مُزوَّداً بالسلاح ، وبالمركبات وهى مثل الخيل على زمن رسول الله ﷺ ، وأيضاً لا بد من الزاد الذى يكفى لأيام القتال ، لذلك جاء الله سبحانه وتعالى بذكر المال أولاً ، ثم بعد ذلك ذكر الأنفس والأرواح ، ومن يملك القوة والمال فعليه أن يجاهد بهما ، ومن يملك عنصراً من الاثنين ؛ القوة أو المال ، فعليه أن يجاهد به . فإن كان ضعيفاً فعليه أن يعين بماله القوى القادر على القتال بأن يوفر له الأسلحة والخيول والدروع وغير ذلك من وسائل القتال.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا ﴾ ، و « جاهد » و «قاتل» مبنية على المفاعلة ، بمعنى : إن قاتلك واحد من الكفار ، فلابد أن تبذل كل جهدك فى قتاله ، و«جاهد» مثل «شارك» ، فهل تقول : شارك زيد ثم تسكت ، أم تقول : شارك زيد عَمْراً ، وقاتل زيد عمراً ؟ إذن : فهناك مفاعلة.

ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول فى آية أخرى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾ [آل عمران]

وهذا القول هو أمر بالصبر على القتال . ولكن هَبْ أن عدوك صبر مثلك ، هنا يأتى أمر آخر من الحق سبحانه وتعالى : ﴿ صَابِرُوا ﴾ أى : اغلبه فى الصبر بأن تصبر أكثر منه . وكذلك ﴿ جَاهِدُوا ﴾ أى : اغلبوهم فى الجهاد ، بأن تجاهدوا أكثر منهم .

ونعود إلى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وسبيل الله هو: الطريق الموصل إلى الغاية التى هى رضا الله والجنة . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾، و « ذا » اسم إشارة ويشير إلى المفرد المستفاد من قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ إذن : فـ « ذا » تشير إلى الجهاد بالمال والنفس ، و ﴿ لَّكُمْ ﴾ تشير للخطاب ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يخاطب جماعة .

وبعض من لا يفهم اللغة يقول : ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ كلمة واحدة خطاباً أو إشارة ، ونقول لهم : لا ، بل هى كلمتان؛ إشارة وخطاب . والإشارة هنا لشىء واحد ، والخطاب لجماعة . ومثال هذا أيضاً قول الحق سبحانه على لسان امرأة العزيز فى قصة يوسف عندما جمعت امرأة العزيز النسوة ، وأخرجت يوسف عليهن ، وصارت هناك جماعة من النسوة ، وهناك يوسف - أيضاً - :

﴿ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ [يوسف: ٣٢]

و « ذا » المقصود بها يوسف ، و « لكُنَّ » هن: النسوة المخَاطَبات .

ومثال آخر أيضاً هو قول الحق سبحانه:

﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ [القصص: ٣٢]

و « ذان » إشارة لاثنين ، وهما معجزتان من معجزات موسى عليه السلام ؛ العصا واليد البيضاء ، وحرف الكاف للمخاطب وهو موسى عليه السلام .

إذن: فقول الحق : ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها مكون من كلمتين : الإشارة لواحد والخطاب لجماعة .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ ﴾ . . عن أى خير يتحدث سبحانه ؟

إن نفرتم وجاهدتم بأموالكم وأنفسكم فهو خير ، ولابد أن يكون خيراً من مقابل له . والمقابل له هو القعود عن الجهاد بأموالكم وأنفسكم .

إذن : فالجهاد خير من القعود .

وكلمة ﴿ خَيْرٌ ﴾ تستعمل فى اللغة استعمالين ؛ الاستعمال الأول أن يراد بها الخير العام ، كقوله تعالى :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة]

ويكون مقابلها فى هذه الحالة هو الشر . ومرة تأتى «خير » بمعنى « أفعل التفضيل » ، كأن تقول : هذا خير من هذا . وفى هذه الحالة يكون كل من الأمرين خيراً ، ولكن أحدهما أفضل من الآخر ، مثل قول رسول الله ﷺ : « المؤمن القوى خَيْرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كُلٍّ خير »[1]

فإن جاءت « خير » دون أن تسبقها « من » فالمراد بها المقابل لها ، وهو «الشر» .

ونجد بعضاً من أساتذة اللغة العربية يقولون : عندما تستخدم كلمة « خير » كأفعل تفضيل لا تقل : « خير » ، بل قل : « الخير » ، ولكن اللفظ المستخدم هنا هو «خير» ، فإن استُعْمل فى أفعل التفضيل فهو يعطى الصفة الزائدة لواحد دون الثانى ، والاثنان مَشتركان فى الخيرية .

وعلى سبيل المثال كان عند رسول الله ﷺ عبد اسمه زيد بن حارثة اشترته خديجة رضى الله عنها ، وأهدته لرسول الله ﷺ ، وعرف أبو زيد

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٧٠) وابن ماجه فى سننه(٧٩، ٤١٦٨) والحميدى فى مسنده (١١١٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وعمه مكانه فذهبا إلى مكة ليروه ، فقال له رسول الله ﷺ: « فأنت قد علمت ورأيت محبتي لك فاخترني أو اخترهما » . فقال زيد: ما أنا بالذى أختار عليك أحداً ، أي : أنه اختار أن يبقى مع رسول الله ﷺ ولا يذهب مع أهله ، فأراد رسول الله ﷺ أن يكافئه ؛ فألحقه بنفسه وقال: « يا من حضر اشهدوا أن زيداً ابني يرثني وأرثه » [1] وكان التبنى مباحاً عند العرب ، وأراد الحق أن يُلغى التبنى وأن يطبق رسول الله هذا الإلغاء بنفسه ، فجاء قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]

و هكذا أنهى الحق سبحانه وتعالى التبنى ، وقال سبحانه وتعالى:

﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٥]

و ﴿ أَقْسَطُ ﴾ يعنى « أعدل » ، كأن الحق سبحانه وتعالى لم يَنْفِ عن رسوله ﷺ العدل ، ولكنه أنزل ما هو أعدل . إذن : فساعة ترى أفعل التفضيل ؛ فاعلم أنه يعطى الصفة الزائدة ويُبقى الصفة الأصلية . وفى الآية التى نحن بصددها ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ ﴾ ومقابلها : أن القعود عن الجهاد بالمال والنفس شر .

يقول الحق سبحانه : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ إذن : فهناك موازين نعرف بها ما هو خير وما هو شر . . وحينما قال الحق : ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فكأن هناك مقدمات للعلم ، فإن لم يكونوا يعلمون ؛ فالله يعلمهم ، ذلك أن الذى يجاهد بماله ونفسه يكون قد اقتنع بيقين أنه سوف يحصل من الجهاد على ما هو خير من المال والنفس . وأيضاً : إن قُتل فهو باستشهاده صار أسوة حسنة لمن يأتى بعده . وحين أوضح

(١) انظر قصة زيد بن حارثة بالتفصيل فى صفة الصفوة لابن الجوزى (١/ ١٩٩ - ٢٠١) وتفسير القرطبى (٧/ ٥٣٧٨) (٨/ ٥٤٦٢) طبعة دار الغد فى تفسير سورة الأحزاب.

سيدنا رسول الله ﷺ أنه من يقاتل صابراً محتسباً يدخل الجنة [(١)] ، جاء له صحابى [(٢)] فى فمه تمرة يمضغها فيقول : أليس بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن أقاتل فيقتلونى ؟ فلما أجاب النبى ﷺ : نعم . استبطأ الصحابى أن يضيع مضغ التمرة وقتاً ، وأن يتأخر عن القتال بسببها ، فرماها من فمه وقاتل حتى استشهد . وكان هذا دليلاً على أنه واثق تمام الثقة أن الاستشهاد يعطيه جزاءً أعلى بكثير مما ترك .

ثم بعد ذلك يعود الحق سبحانه وتعالى إلى الذين يتثاقلون عن الجهاد ليصفى المسائل كلها، فيقول جل جلاله:

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

والعَرَضُ هو ما يقابل الجوهر ، والجوهر هو ما لا تطرأ عليه أغيار ، فالصحة عَرَض والمرض عرض ؛ لأن كليهما لا يدوم ، إذن فكل ما يتغير يسمى عَرَضاً يزول . ويقال: الدنيا عَرَضٌ حاضر يأكل منها البَرُّ والفاجر [(٣)] .

(١) قال ﷺ : « ياعبد الله بن عمرو ، إن قاتلت صابراً محتسباً بعثك الله صابراً محتسباً » أخرجه أبو داود فى سننه (٢٥١٩) والحاكم فى مستدركه (٢/ ٨٥) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٢) وذلك أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يوم أحد فقال له : أرأيت إن قتلت فأين أنا؟ قال: فى الجنة . فألقى تمرات فى يده، ثم قاتل حتى قُتِلَ . أخرجه البخارى (٤٠٤٦) ومسلم (١٨٩٩) فى صحيحيهما من حديث جابر بن عبد الله .

(٣) حديث ضعيف جداً . عن شداد بن أوس مرفوعاً إلى النبى ﷺ أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/ ٢٦٤) وابن عدى فى الكامل (٣/ ٣٦١) ط . دار الفكر فى ترجمة أبى مهدى سعيد بن سنان . قال الجوزجانى : أخاف أن تكون أحاديثه موضوعة . وقال البخارى : منكر الحديث . انظر : ميزان الاعتدال (ترجمة ٣٢٠٨) . ولكن قد أورده أبو نعيم موقوفاً على شداد من طريق آخر من قوله . وهو الأوجه .